مَرْضَى
حَكَمُوا العَالَم

اهداءات ١٩٩٩
مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

مرضى حكموا العالم

إقتباس
رشاد جميل فياض

جروس برس

جميع الحقوق محفوظة للناشر

١٩٩٤

جروس برس

طرابلس - لبنان

فاكس: ٧٨٢٧٩٠ ٢١٢٤ ٠٠١

المقدّمة

«تعدّدت الأسباب والموت واحد»، فالموت حق يصيب كل كائن على وجه الأرض مهما علا شأنه.

إلّا أنّ موت عظماء هذا العالم له طابعه المميّز، والشيء الملفت للنظر أنّ كثيرًا من هؤلاء العظماء قد لاقوا حتفهم نتيجة خضوعهم لعلاجات شبه متناقضة تعود لكثرة الأطباء المحيطين بهم.

هذا الوضع دفع العديد من المقرّبين من هؤلاء العظام لإلقاء الأضواء على وضعهم الصحيّ وإظهار حقائق كثيرة طالما بقيت طيّ الكتمان ومنها أنّ عدداً لا يستهان به من هؤلاء الرؤساء كانوا يعانون من أمراض خطيرة ومزمنة تترك آثارها السلبيّة الواضحة في طريقة حكمهم، خاصّة أنّ لا أحداً كان يتخلّى بملء إرادته عن الحكم أو حتّى عن جزء بسيط من مسؤوليّاته. ويبقى المواطن الضحيّة الأولى والأخيرة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل أنّ هذه الأخطار الناجمة عن مثل هذه الأوضاع الصحيّة جديّة وإلى أيّ حدّ؟

الواقع أنّ التاريخ يحمل في طيّاته الجواب الصريح والوافي. ألم يكن تفشّي مرض الطاعون السبب الرئيسي في سقوط الأمبراطوريّة اليونانية وخسارتها لأسطولها وقدرتها وسيطرتها على العالم آنذاك؟ ألم يكن أيضاً مرض الملاريا سبباً في انهيار الأمبراطوريّة الرومانيّة؟ وكذلك مرض الطاعون في القرن الرابع عشر والذي عاد وظهر بحدّة في إنكلترا وأثّر سلبًا ليس على

التجارة في هذا البلد وحسب وإنّما على التجارة في القارّة الأوروبيّة بأكملها؟ وإذا كان التاريخ قد سجّل تأثير الأمراض على الجماعات، إلّا أنّه أَغْفل عن تسجيل تأثير الأمراض على الرؤساء والعظماء في هذا العالم على الرغم من أهميّة التوازن الفكريّ والجسديّ لدى الحاكم.

ويؤكّد الأميركي «روسك» والذي تسنّى له مراقبة تصرّفات الرئيسين «كينيدي» و«جونسون» عن كثب وحضور أهمّ القمم العالميّة أنّ عدداً كبيرًا من القرارات اتّخذت تحت تأثير ارتفاع في الضغط مثلاً أو تشنّج في العضلات والأعصاب أو. . . وكان من الممكن أن تكون مختلفة ومغايرة لما جاءت عليه.

في الواقع أنّه في مؤتمر «يالطا»، حيث قرّر السوفيات والأميركيّون اقتسام مناطق النفوذ في العالم إثر الحرب العالميّة الثانية، تمكّن «ستالين» من السيطرة على الرئيس الأميركي «روزفلت» الذي كان يشكو يومها من وضع صحيّ متدهور. . . إلّا أنّ هذا الأخير استطاع أن يثأر لنفسه بعد مرور ١٥٠ يوماً بالضبط في «بوتسدام» بشخص الرئيس تشرشل، إذ أنّ «ستالين» بدا خائفاً على نفسه. قليل الحركة والكلام إثر تعرّضه لنوبة قلبيّة.

وما ابتغيناه في كتابنا هذا إظهار حقائق مخيفة تبين مدى تأثير التدهور الصحّي على قرارات على درجة كبيرة من الخطورة. والأخطر في الأمر يبقى مرتبطاً بوجود السلاح النوويّ والذي يبقى استعماله حكراً على قرارات مثل هؤلاء الرؤساء. . . المرضى؟

«رونالد ريغن Ronald Reagan»

وُلد ممثّلاً، ونميَّ هذه الموهبة حتى البراعة، فامتهن التمثيل، وخاض هذا المضمار بنجاح، حتى درجة النجومية وأصبح عضواً بارزاً في المحافل الفنيّة والسينمائيّة. تخطب ودّه وتتسابق على التعاقد معه كبريات الشركات والستيديوهات. وبالفعل اشترك في تمثيل العديد من الأفلام والمسلسلات التي لاقت استحسان النقاد العالميين، وإقبالاً شعبيّاً كثيفاً، ناهيك، عن المردود الماديّ الناتج عن التزاحم اللافت للأنظار، والانتظار الطويل أمام شبابيك التذاكر، علماً بأن بعض أفلامه كانت تعرض بالوقت نفسه في عشرات الدور السينمائية في أرجاء الولايات الأميركية الشاسعة، كما في عواصم الدول الاوربية والعالمية. والجدير بالذكر، أنّه كان على البعض أن يشتري بطاقات بتواريخ مؤجلة لا تسمح لهم بالدخول، إلّا بعد مرور أيام عديدة، وهكذا ازدهرت سوق سوداء، لتداول هذه التذاكر، بأثمان تفوق بعشرات الدولارات ثمنها الأصلي.

وممّا ساعد رونالد ريغن على النجاح في الأدوار التي أسندت إليه، بالاضافة إلى قامته الطويله وإطلالته اللافتة للنظر، حسن أدائه للحوار، بحركاته ونبرات صوته المعبّرة التي تساعده كثيراً على إيصال ما يريده من أحاسيس ومشاعر إلى جمهوره. وقد وظّف فيما بعد ميزاته الطبيعية وبراعته التمثيلية والخطابية لخوض غمار السياسة في بلاده، فتبوأ سدة الرئاسة مرتين متتاليتين، وهذا أقصى ما يسمح به الدستور الأميركي.

كما في دخوله إلى البيت الأبيض، كذلك قبل خروجه القسري منه، لم يتمكن ريغن من التخلي عن طبيعته الفطريّة كممثل، فيترك الساحة ببساطة،

متخلياً عن أمجاده وأدواره، بل أقحم نفسه في مستقبل بلاده، واختيار الشخص الذي يعتبره الأنسب لخلافته، وإدارة التركة والإرث من بعده. فرمى بكامل ثقله في الميدان مجيّراً إنجازاته وانتصاراته: الحقيقية منها والمزعومة إلى خليفته العتيد وذلك قبل ثلاثة أشهر من الإنتخابات الرئاسية الأميركية، سنة ١٩٨٨ وبالتالي، قبل اعتزاله وخروجه من البيت الأبيض. وفي نهار الاثنين الواقع في الخامس عشر من آب، أعلن تأييده الكامل، ودون أيّ تحفظ، لترشيح جورج بوش، أمام المؤتمر الجمهوري العام، الذي انعقد في مدينة أورليان ـ الجديده. وهذه الخطوة النادرة من نوعها شكّلت عنصراً أساسياً في نجاح بوش ووصوله إلى الرئاسة. وعلينا أن نرجع ثلاثين سنة إلى الوراء، لنجد تعهداً مماثلاً؛ وتحديداً، سنة ١٩٦٠، عندما تعهد الرئيس الجنرال دوايت ايزنهاور، قبل انتهاء ولايته، وامام المؤتمر الجمهوري عينه مساندة ودعم ريتشارد نيكسون في معركته الانتخابية وخلافته ولكنه في ذلك العهد، كان أيزنهاور يستعد لترك منصبه وتركته بقرف غير آسف، وكأنّه يتحرر من أعمال السخرة، وهكذا دفع نيكسون الثمن، فنال (١١٨٥٥٠) من أصل (٦٨٨٣٨٨٧٩) صوتاً، في وجه منافسه الديمقراطي جون كنيدي.

ريغن، في مجال دعمه لترشيح خليفته بوش، قد استعمل طريقة خاصة به، تختلف إختلافاً جذريّاً عن طريقة ايزنهاور في دعمه لنيكسون. فعلى طريقة نجم مسرحية، يقدّم أفراد فرقته إلى الجمهور قبل الابتداء بالتمثيل، مكرراً تقديره واحتراماته لبوش؛ كما قدّم له الشكر والإعجاب بالأعمال التي شاركه في إنجازها خلال السنوات الثماني التي أمضاها إلى جانبه كنائب للرئيس. وبهذا كان يجيب بصورة غير مباشرة على منتقديّ بوش، إذ كانوا ينعتونه بالرجل الخفيّ، وبأنّه لا يتمكن من اعتلاء منصّته، دون الرّجوع إلى مذكرة قد أعدّها مسبقاً، كذلك بأنه لا يتمكن من الكلام بضع دقائق دون اقتراف عشرات الأخطاء.

من عادة الرئيس ريغن أن لا يتكلم إلّا عن نفسه، لكن في هذا الاثنين الواقع في الخامس عشر من آب، وخلافاً لعادته، لاحظ الحضور، أنّ ريغن

لجم نفسه كخطيب مفوّه، وحدّ من بلاغته، وذلك دون شك كي لا يسحق أو يغطي بوش، ويظهره بمظهر المحدود. وفي هذه الخطبة قدّم للجمهور تعهدات مهمّة بالنسبة إلى مقدّرات بوش. كذلك، ودّع مؤيديه بطريقة عاطفيّة ذاكراً بأسف شديد السنين الطيّبة التي قضاها في البيت الأبيض في خدمة بلاده والأمّة الأميركية. بعد ذلك كرّس ريغن نفسه خلال خريف ١٩٨٨ كليّاً لمعركة انتخاب بوش، وهكذا ابتعد ومن ثمّ ترك السلطة بهدوء ونعومة. ولكنّه لم يترك فرصة تفوته دون تحيّة جمهوره ومؤيديه، وتذكيرهم بشكل مفصّل عن أحد إنجازاته وانتصاراته أثناء وجوده في الحكم، ممّا يهزّ مشاعر الشعب فيصفقون طويلاً، ويهتفون عالياً. ففي هذه الاجتماعات الحافلة، حيث يختلط الحابل بالنابل، ويجتمع العابث بالدابس، لا يهم سوى الكلمات الموسيقيّة والألفاظ الطنّانة كما عندما يقول: لقد تحررت أفغانستان من السوفياتيين، وحلّ السلام بين إيران والعراق، وخيّم الإسترخاء على إفريقيا الجنوبية. أمّا عندما يصل إلى حبّه لأميركا، فيكاد يذوب من شدّة هذا الحبّ وعلى طريقة الأطفال الأميركيين، يذكر، أنّ في أميركا مئتي طعمة من المثلجات المختلفة. ويقول بنقمة لا تخلو من الأسف، إنّني ذاهب دون شك، ولكن بوش سيخلفني، لأنّه لا يزال يوجد الكثير من الأشواك لتنظيفها، ومن الحواجز لتجاوزها ومن الخيول لامتطائها. وتابع مازحاً، وللضرورة، أترك لكم عنواني ورقم هاتفي... وجدير بالذكر أنّ هذا النوع من المزاح كان يثير اشمئزاز مرغريت تاتشر في كواليس إجتماعات القمة.

كان ريغن يهلع فزعاً عندما يتذكر بأنّه بعد أسابيع معدودة سيسبح في الفراغ والصمت، بعد أن أمضى، ليس شهراً، بل سنوات العسل مع القوّة والسلطة، فيغرق في نفسه حتى يهدأ فيقول لنفسه: «سيكون في إمكاني دائماً، أن أدفع بوابة «دل سيالو» «Del Cielo» إسطبله الفخم الكائن في شمال سانتا برباره في كاليفورنيا حيث استريح». وهنا ينوي تمضية بقيّة حياته. في إحدى جولاته الإنتخابية لدعم وليّ عهده بوش، وذلك بعد ظهر يوم الاربعاء الواقع في ٣ آب ١٩٨٨، وجّه إليه أحد الصحفيين مستفسراً عن رأيه بميكائيل

دوكاكيس الملقب «بالدوق»، فما كان منه إلا أن علت شفتيه ابتسامة ساخرة، ثم نزل تاركاً المنبر وهو يلقي قنبلة، إذ تمتم على مسمع من الصحفيين، دعكم منه، لا أريد أن أغتاب رجلاً معاقاً. وهذه إشارة واضحه ومباشرة إلى الإشاعات التي راجت حول صحة دوكاكيس العقلية اثر مقتل شقيقه بحادث سنة ١٩٧٣، وفشله في إنتخابات حاكم لولاية ماساشوست سنة ١٩٧٨، فأصيب دوكاكيس بهبوط في الأعصاب، وانزوى على نفسه مبتعداً عن المراكز العامة وبقي على هذه الحال، حتى ما قبل الافتتاح الرسمي لمعركة الإنتخابات الرئاسيّة، إذ، بصورة فجائيّة وعجائبية، نفض غبار الزمن عن نفسه، وغاص في غمار المعركة حتى أذنيه، ونال تأييداً لا بأس به، لا بل مشجّعاً، حتى رمى ريغن بقنبلته الموقوتة وتناولتها جميع الصحف والإذاعات، مع ما شاء كلّ صحفيّ ومذيع من الإضافة إليها من «مقبّلات». ولما كانوا في الولايات الأميركية، لا يمزحون، ولا يحابون، ورغم أنّه أقسم أغلظ الأيمان نافياً أنّه كان قد أُخضع لأيّ علاج نفساني أو عصبيّ وتحدى كل من يريد أن يثبت عكس ذلك بتقرير طبيّ أو شهادة طبيب. ولكن يمينه وتحدياته، بقيت دون فائدة، إذ انفضّ من حوله حتى أقرب المقرّبين إليه وأصبح وحيداً في الساحة، ثم أبرز في مؤتمر صحفيّ شهادة من طبيبه الخاص تنفي نفياً قاطعاً الإشاعات التي تلوك سمعته الصحية. كذلك وزّع على الصحف صوراً عن نتائج الفحوصات السنويّة العامة التي أجراها قبيل معركة الإنتخابات على عادة الأميركيين، تؤكد سلامته وتمتعه بصحة عقليّة وجسديّة ممتازة، ممّا حمل رونالد ريغن على التراجع معتذراً معلّلاً ما قاله بأنّه لم يكن سوى مزحة، ولم يكن من المستحسن أن يقول ذلك.

إنها غلطة. . . حقاً؟ الأقرب إلى الحقيقة، مكر واحتيال. هكذا أصبح رونالد ريغن، معنيّاً بكثير من عناوين العديد من كبريات الصحف، إذ أنّه يعرف جيّداً أكثر من غيره، بأنّ صحة رئيس في السلطة، كذلك صحّة المرشحين لهذا المركز، في أميركا، كما، في جميع الدول الراقية، هي من شؤون الدولة المهمة، خصوصاً أنهّ خطيب مفوّه، يملك قوة الاقناع. ومع

هذه المواهب لا يُسْمَح أن يتجاهل قوة الكلمة، خصوصاً أنّ هذه المزايا، أوصلته إلى أعلى المراتب. لكن، لدى وصوله إلى البيت الأبيض، لم يرَ عظماء العالم القديم في هذا الحدث سوى نجاح ممثل سابق، نشأ وتربى في مدرسة هوليود للجمال وفن الجاذبيّة، إذ لم يكن يهمهم سوى مظهر. وقد كان جميلاً في حينه. وقد قوّم هذا الحدث في أوروبا على أنه اختراق لا يصدق وغير معقول.

لم يندهش لهذا الحدث أحد من الأميركيين. وأقصى ما علّق البعض على ذلك بقوله: إنه راعي بقر سابق، عرف كيف يتسلق الدّرج بمهارة. والكثير من المواطنين المتحدرين من الطبقة البورجوازية، كما من أهالي الريف البعيد، صوّتوا بكثافة لمصلحته سنة ١٩٨٠ ومن ثمّ سنة ١٩٨٤ وما زالوا حتى الآن يتحسرون عليه وعلى اعتكافه وابتعاده عن المسرح السياسيّ، كما أنّ صورته المجسّمة لا تزال تزين صدور الصالونات في العديد من البيوتات من مختلف المستويات مع رسوم لنكولن، وروزفلت وغيرهم من العظماء والأبطال الأميركيين. لا غرابة في ذلك؛ إذ طالما أعجب الأميركيون بالمغامرين وأصحاب الصرعات. وفي المقابل لا يأبهون مطلقاً، لمن يطلقون عليهم تسمية «أنصاف الرابحين» الذين يولدون وفي أفواههم ملاعق من ذهب، على مثال جون كنيدي والذين لا يبذلون الكثير من الجهود للتوصل إلى النجاح والمراكز العالية.

بالنسبة لريغن، فقد بدأ حياته السياسيّة من أسفل الدرج ثم انطلق صعوداً بتؤدة وانتظام، من هضبة إلى هضبة، حتى القمة، حيث تربّع مستريحاً في البيت الأبيض؛ مركز السلطة والقرار في العالم. وهكذا صنّف بين الأبطال الذين أجّجوا مشاعر الأميركيين ودخلوا إلى قلوبهم بأحداث وتصرفات لا تمحى من ذكرياتهم وتاريخهم، وأصبحوا مدعاة اعتزازهم وتفاخرهم.

سنة ١٩٨٠، اختير رونالد ريغن لرئاسة الجمهورية الأميركية وكان قد تعهد بأنه سيمحو الإذلال الذي أصيبت به الولايات المتحدة في عهد (جيمي كارتر) حيث في طهران، «أحرق جنود الله العلم ذا النجوم، العلم الأميركي،

واحتجزوا ممثّل واشنطن وجميع أفراد السفارة الأميركيين كرهائن» فبانتخابهم لريغن، لم ينتخبوا فقط، رجلاً خارقاً (سوبرمان) في ثياب أنيقة، وطلّة مهيبة يوحي بالقوة والرجولة؛ إنّما انتخبوا أيضاً، ابن أحد تجار الأحذية في «تمبيكو» من ولاية «ألينوى»، والتلميذ المرموق المتحدر من أصل أيرلندي، الشعب الذي يحمل في خلاياه ودمائه، العناد وكبر الرأس والتلميذ، الذي يحمل دبلوماً في الإقتصاد والعلاقات العامة، وهو ابن الثانية والعشرين من العمر وقد انتسب إلى جامعة إيريكا Eureka. والسبّاح المنقذ، إلى جانب كونه الأجهر صوتاً، والأكثر صراخاً في المدارج، والصحفيّ الرياضيّ. وختاماً، ممثّل الأربعينات والخمسينات الناجح والناطق بالأعمال باسم شركة جنرال الكتريك. ثم اقتحم حاكمية ولاية كاليفورنيا، وخطيب الحزب الجمهوري، وكاتب إفتتاحيات صحفيّة، وقد نال إعجاب الشعب الأميركي لأسباب عديدة غير ما ذكرنا. منها أنّه يجد لذّة خاصّة بتقطيعه الحطب لمدفأته وفي امتطاء حصانه، وأن يشاهد في منزله، على الفيديو، صورته في الأقطار الأميركية البعيدة. كما لا يجد غضاضه في التصريح بأنّه يكره ركوب الطائرة كالكثير من الشعب الأميركي، وأنه شغوف بأكل المعكرونة بالجبن، وبأنّه يروي الحكايات السخيفة التي لا معنى لها، ولا يمنع بأن تكون، بعض الأحيان، واقعيّة.

رونالد ريغن وصوت الطبل

يتمتع ريغن بصوت جهوري دافيء، له رنّة محببة وهو يعرف كيف يستعمله. فلكل حديث، بل لكل مقطع نغمة معينة وبهذا يتقرب من كل أنواع البشر، ولا سيما الطبقات الشعبيّة. فهو خجول مع الخجولين ومتصلّب مع المتصلبين ومتسلّط مع المتسلّطين. وقد عقد صلات الصداقة مع أصحاب السلطة والمراكز كذلك مع المثقفين الذين تعاقبوا تباعاً على المكتب البيضاوي الشهير. وقد استنبط أخصامه ومنافسوه سخرية يتناقلونها فيما بينهم وهي أنّ صوته يشبه صوت الطبل، ربّما كان ذلك صحيحاً، بعض الشيء ولكن من القياس الكبير.

كذلك كان ريغن أكبر الرؤساء الأميركيين سناً. كان في التاسعة والستين وتسعة أشهر يوم انتخابه، في الرابع من تشرين الثاني سنة ١٩٨٠؛ وكان في الثالثة والسبعين وتسعة أشهر يوم أعيد انتخابه سنة ١٩٨٤.

منذ سنة ١٧٨٩، السنة الأولى من عهد الرئيس جورج واشنطن، تعاقب على سدّة الرئاسة الأميركية ٣٨ رجل دولة، قبل وصول ريغن إليها وتمركزه في البيت الأبيض طيلة ثمانية أعوام. وخمسة عشر من مجموعهم تمكن، مثل ريغن من إعادة انتخابه مرتين. أمّا السادس عشر والذي نال قصب السبق فهو الرئيس فرانكلين روزفلت، الذي انتخب أربع مرات متتالية. أقام منها اكثر بقليل من اثنتي عشر سنة في البيت الأبيض، وفارق الحياة وهو في الثالثة والستين من العمر. أما بقيّة الرؤساء الذين حكموا الولايات الأميركية المتحدة فكان سبعة منهم لم يصلوا بعد إلى سن الخمسين سنة، وثلاثة وعشرون لم يبلغوا الستين سنة؛ وسبعة أقل من خمسة وستين سنة؛ أمّا الجنرال وليام هاريسون، فكان في الثامنة والستين من عمره عند انتخابه سنة ١٨٤١، ولكنّه لم يتمتع طويلاً بهذا المركز، إذ عاجله الموت في الشهر التالي لاستلامه الحكم.

رونالد ريغن «العجوز»

احتلّ رونالد ريغن، البيت الأبيض، واسترخى في المكتب البيضاوي الشهير، في الرابع من تشرين الثاني سنة ١٩٨٠ وله من العمر تسعة وستون سنة وتسعة أشهر تماماً. وفي انتخابه للمرة الثانية سنة ١٩٨٤، كان قد بلغ، الثالثة والسبعين وتسعة أشهر، ممّا يعني، خصوصاً في نظر الشعب الأميركي، أنهّ يوم انتخب للمرة الأولى، كان ريغن شيخاً، أمّا عندما انتخب للمرة الثانيّة، فقد أصبح شيخاً عجوزاً، عرفت معه الولايات الأميركية المتحدة، النظام السياسيّ، الذي عانت واشتكت منه بعض الشعوب، والذي كان موضع سخريّة وتهكّم الأميركين، وخصوصاً حكم الاتحاد السوفياتي. فقد كان له القسط الأوفر من النكات والأوصاف القبيحة. حتى الصحف

الأميركية لم تتورع عن نشر الصور الكاريكاتوريّة لرجالات الحكم في الاتحاد السوفياتي، أقلّها، «نيكيتا خروتشوف» بهيئة دب هرم، يدبّ متوكأً على عصاتين. وأقلّ ما قاله الأميركيون في هذا المجال: إنّ الشعب السوفياتي المسكين يرزح تحت حكم الشيوخ. هذا في البلاد ذات الأنظمة الجمهوريّة الديمقراطيّة. أمّا في البلاد الملكيّة، فعلى العكس تماماً، إذْ كلّما تقدم المليك بالعمر، زاد حبّه واحترامه من قبل الشعب، لإيمانهم بأنّ السنين تزيد الرجال حكمةً ورصانة، فتبعدهم عن الرعونة والتهور، فلا يزجّون ببلادهم وشعوبهم في ما لا تحمد عقباه، ولا تعرف نتائجه. وقد أعطى بعض المفكرين والكتّاب أمثالاً صارخة على ذلك لا تقبل الجدل، وأقربها تاريخاً، السعيدا الذكر، هتلر، وموسوليني. فعندما اغتصب هتلر الحكم في المانيا، سنة ١٩٣٣، كان في الرابعة والأربعين من عمره. أمّا زميله وحليفه موسوليني فكان في الثامنة والثلاثين، يوم نصّب نفسه دكتاتوراً على أيطاليا. ومن ثمّ زجّا العالم في أتون حرب ضروس، زلزلت الأرض وأحرقت شعوب العالم وخلّفت من الخراب والدمار ما لايعوّض، ولا يقدّر بثمن. كما أنّها حصدت أكثر من أربعين مليون قتيل. ومثلهم من المعاقين والمشوّهين ومئآت الملايين من البؤساء والمشرّدين: وكلّ ذلك دوّن في حساب الزعيمين الكبيرين. كما أنّ في التاريخ أمثالاً كثيرة، تثبت أنّ العنف، والظلم، والتصدي، لا يصدر إلّا من الرجال في مقتبل أعمارهم وأوْج رجولتهم وليس من الشيوخ والحكماء وأصحاب الرويّة والتبصّر. وأخيراً، فإنّ التاريخ لا ينسى الأمبراطور إيفان الرابع الذي لُقّب فيما بعد بالرهيب إذ جعل الرعب يسيطر على روسيّا وسائر أرجاء امبراطوريته الشاسعة وهو في الواحد والثلاثين من عمره.

لم ينفرد هتلر وموسوليني وإيفان الرهيب وغيرهم ممّن مرّ ذكرهم معنا، في إشعال الحروب، مقتحمين بلاد العالم، مدفوعين بشهواتهم الهستيريّة في التوسّع، والتسلّط على البلاد والشعوب، والإستئثار بخيراتها وإنجازاتها، غير آبهين بالخراب والدمار، اللذين يتسببون بهما، والبؤس والشقاء اللذين يخلّفونهما وراء جحافلهم ناهيك، عن ألوف القتلى والجرحى والمشرّدين، إن

في صفوفهم أو في صفوف البلاد التي يقتحمونها. فإنّ كتب التاريخ تضيق بذكرهم، وسرد نتائج غزواتهم وفتوحاتهم. وجميع هؤلاء القادة كانوا بين الثلاثينات والاربعينات من عمرهم.

ريغن وتأثير العمر على تصرفاته

في المقابل، ثمّة قاعدة ثابتة، لا تقبل الجدل، وتعنينا جميعاً دون أي استثناء ولا مهرب منها لأحد: «عندما يكبر الإنسان في العمر يضعف» فإنّ مرور السنين، وهروب الزمن، يُسْهِمَانِ اسهاماً سلبياً حتميًّا، على تركيبة الجسم البشري، إذ يتآكل هذا الجسم، وينال منه الوهن، بجميع أعضائه وأجهزته ومنها الدماغ. وهذه الظاهرة تصيب عظماء العالم، كما تصيب صعاليكه. فتصيب في من تصيبه، ممّن توصلوا إلى القناعة وابتلاع ما يردده على مسامعهم بعض الأطباء المراهنين الذين يحيطون بهم، ويلعقون من صحونهم، بأنّ رحيق العظمة يحصّنهم، ويغمسهم، كما يغمس الفولاذ، فيزيدهم قوّة وصلابة ويمنع عنهم الصدأ والتآكل «إذا صحّ التعبير».

إنّ تسلّم رونالد ريغن السلطة العليا، وبالتالي، زمام البلاد والعباد، وهو في خريف العمر، مخاطرة بحدّ ذاتها تتعرّض لها الولايات المتحدة، وإنّ الشعب الأميركي يشترك في المسؤوليّة والنتائج المحتملة من جرّاء الخلل السياسيّ والإداري، الناتج عن المتاعب الصحيّة التي يعاني منها الرئيس، خصوصاً إذا تفاقمت، وهذا، أمر طبيعيّ بالنسبة، إلى المسنين.

خلال الحملة الانتخابية التي أوصلت ريغن إلى البيت الأبيض للمرّة الأولى، سنة ١٩٨٠، لاحظ بعض المراقبين، الذين لا يؤخذون بالعاطفة، ولا يتأثرون، بهالة البطولة والتحدي، التي ينسجها جماعة ريغن من حوله، تصلّباً في رأيه وغطرسة في تصرفاته تجاه المنتخبين، عكس ما هو مفترض، في مثل هذا الظرف، من اللطف والليونة؛ وبعد أن ربح المعركة واستقرّ في البيت، ودون الرجوع إلى الملفات، ودراسة الوثائق، اقترف خطيئة لا تغتفر، إذ أنّها تمسّ مباشرة سياسة أميركا الخارجيّة، المتعلّقة، بالعلاقات الأميركية مع الصين

الشيوعيّة، والتي كان سلفه، الرئيس نيكسون، قد قام بجهود مضنية، وحوارات طويلة حتى رسّخ جذورها وأذاب الجليد المتراكم بين الدولتين منذ عشرات السنين. لقد اقترح ريغن، دونما سبب أو مناسبة، بصورة علنيّة، إعادة العلاقات، بأسرع ما يمكن، بين الولايات المتحدة، والصين الوطنية، ممّا جعل سلطات الصين الشيوعية تحتج بشدّة وغضب. وفي صباح اليوم التالي، بعد إطّلاعه على العناوين الكبيرة، في الصفحات الأولى من الجرائد، رجع إلى رشده، وفي محاولة يائسة لإصلاح ما أفسد، لم يجد من وسيلة، سوى توجيه اللّوم إلى الصحفيين والمعلّقين مدّعياً، بأنّهم أساءوا فهم وترجمة أقواله، وهذه التمثيليات شائعة الحصول في المجالات السياسيّة؛ لكنّ المستغرب أنّ ريغن وبين مساعديه الشاهدين على غلطه، رفض بشكل قاطع إمكان وقوعه في الخطأ. وليست هذه الحادثة، وحيدة من نوعها بل كانت تتكرر بشكل كثيف. وقد عزا بعض المراقبين هذه الحالة، إلى اختلال في المزاج، يصاب به المسنّون من وقت لآخر.

الشلّة الكاليفورنية المسنّة

«قديماً قيل: الناس على دين ملوكهم» ممّا لفت أنظار المراقبين، أنّ الفريق المحيط بالرئيس ريغن، والذي سميّ في حينه «بالشلّة الكاليفورنية» وكان قد لحق به إلى البيت الأبيض، يتألف في أكثريته، من رجال مسنين يجايلون رئيسهم. فوليام كيسي، المحامي النيويوركي الثريّ، الذي يعتبره ريغن «أخاه في السلاح» رغم أنّه لا ينتمي إلى «العائلة الغربية» كان في السابعة والستين من عمره، عندما قاد المعركة الانتخابية الرئاسية «بفعالية» لمصلحة ريغن. ثم اعتنق بشكل تام أفكاره، وتبنّى طريقته في كل ما يتعلق بالدفاع، والأمن القومي والاقتصاد. وعلى سبيل المكافأة، أسند إليه ريغن، مديرية وكالة الاستخبارات الأميركية C.I.A. وبهذا، أصبح من أقوى رجالات الولايات المتحدة، ممّا سمح له باستعماله لهذه المؤسسة الهائلة على هواه، أن ينتهج سياسة خارجيّة خاصّة به. ومن طريف الصدف أنّ كاسي يعاني كرئيسه

نفس الهموم والمصاعب الصحيّة. فقد أصيب الإثنان في نفس الوقت بالسرطان، أصيب ريغن اولاً بسرطان بسيط في البروستات، أمّا كاسي فكانت إصابته أخطر، إذ أصيب بتورم سرطاني في الدماغ. ولا بدّ لهذا الخبيث، في نموه وتمدّده الصامت، من أن يولّد لدى المريض همّاً وغمّاً وشعوراً بالإحباط، ممّا يؤثر سلباً على تصرفاته وقراراته، دون أدنى شك.

إنّ معركة ريغن الانتخابيّة الأُولى، ولّدت ردات فعل معتدلة ومختلفة، باختلاف الفئآت والمصالح. فالموظفون أعلنوا العداوة علناً، إذ أنّ ريغن، كان قد أعلنَ في برنامجه الانتخابي، تخفيض مصاريف الدولة بنسبة كبيرة، ممّا يعني الاستغناء عن خدمات الألوف من الموظفين. أمّا تصريحاته باعتماد الليبراليّة التامة والغير المشروطة لكل ما يتعلّق بالاقتصاد والاستثمار، فقد ولّدت شعوراً بالحذر. لكنّ الشعور بالراحة والسعادة، قد عَمّ الأكثرية الساحقة من الشعب الأميركي، عندما أعلن عن تعهده بتخفيض الضرائب عن كاهل الشعب، وخصوصاً الطبقات المتوسطة وما دونها، والسير على خطى الرئيس الأسبق فرنكلين روزفلت، وإجراء تغيير جذريّ في الحكم. وكثيراً ما كان يردّد في خطبه صفة كان قد اعتنقها وسيطرت عليه حتى الوسواس: «العائلة، العمل، الحرية، السلام، احترام القريب» ممّا أثار سخرية الديمقراطيين. إلا أنّها أعطت ثمارها، وفاز ريغن في الإنتخابات.

عظمة الاحتفال بتنصيب ريغن

خلافاً للبساطة والوضاعة للحفل الذي تمّ به تنصيب الرئيس جيمي كارتر، فإنّ افتتاح عهد ريغن، كان الأضخم والأبهى، والأكثر كلفة، في التاريخ الأميركي في هذا المجال، إذ دعي إليه، كل من هبّ ودبّ من المغنين والفرق الموسيقية، كما ضمّ، رجال السياسة، والمال والأعمال وحشداً ضخماً من الملوك والرؤساء، مما حوّله إلى عيد كبير.

لكن البهرجة والسخاء تحوّلا إلى جوّ من الذهول والوجوم، إثر حادث مريع، وذلك بعد أسابيع قليلة من حفل التنصيب، تعرّض له الرئيس كاد

يودي بحياته، وكان له تأثيرٌ سيّئ على الهالة التي أحيط بها العهد والرئيس الجديد. وفي ما يلي تفصيل الحادث، كما رواه «دنيز ماك أرثي» أحد الحرس الملحقين بالبيت الأبيض: في يوم الاثنين الواقع في الثلاثين من آذار سنة ١٩٨١، ولدى خروجه من «الهيلتون» في واشنطن، بعد إلقائه إحدى خطبه الطّنانة، وفيما هو يحي الجماهير الغفيرة المتراصة على الأرصفة وقد تهيّأ للصعود، إلى سيارة الكاديلاك الليموزين، المصفّحة، المتوقّفة بالقرب من المدخل، والتي، خلافاً للعادة، تفتح أبوابها إلى الخلف، وهي فريدة من نوعها بين سيّارات الرئاسة، وهذه الخاصّة الفريدة، باعتقاد، المحققين، هي التي أنقذت حياة الرئيس عندما أطلق باتجاهه أحد المهووسين، خلال ثلاث ثوانٍ ستة عيارات ناريّة أصابته إحداها بصدره إصابة طفيفة، قبل أن يقذف به أحد الحرّاس إلى داخل السيارة، فارتطمت بقية القذائف بأبواب السيارة التي كانت بمثابة درع واقية، بعد أن حصدت إحداها جيمس برادي، المتكلم الرسمي باسم البيت الأبيض وقد أصيب إصابة مباشرة في رأسه.

عندما انتهره «ماك آرثي» لم يبدِ القاتل، أيّ مقاومة أو محاولة للهرب. إذْ ألقى بسلاحه إلى الأرض بهدوء كما طلب منه، وارتسمت على محيّاه ابتسامة بلهاء. فألقي القبض عليه ببساطة مستسلماً كشاة قرعاء، وسيق إلى التحقيق. فإذا به شاب في مقتبل العمر، يتمتع بصحّة جيّدة حسن الهندام، جميل الصورة يضع نظّارات طبية، يتّسم وجهة بالطيبة والبراءة، ويدعى «جوّن هانكلي». وقد أصيب المحققون بالدهشة والحيرة، إذ أن سجلّه العدلي نظيف لا يحتوي على أيّة سابقة أو جنحة، ولم يسبق له أن اعتقل أو حُقّق معه. كما أنّ اسمه غير مدرج في لوائح الشرطة، التي تحتوي على أربعين ألف من المهووسين والمصابين بالانفصام، ومختلف أنواع الأمراض النفسية، الذين ربّما شكّلوا خطراً على سلامة الآخرين الموضوعين تحت المراقبة المكثّفة، من قبل مختلف الدوائر الأمنية بسبب ميولهم العدائيّة والاجراميّة. وعندما أُخضع للفحوصات الدقيقة، تبيّن أن «هانكلي» هذا مثالٌ صارخٌ لعدم الاتزان. وبفعلته هذه دخل هذا العالم «عالم الإجرام» من أوسع الأبواب وأعلاها.

ولدى سؤاله عن الأسباب التي دفعته إلى إغتيال الرئيس، أفاد ببساطة وصراحة، أنّه أقدم على جريمته، تقليداً لبطل فيلم، «سائق التكسي» للممثّل «مارتن سكورسس» الذي عُرض سنة ١٩٧٦، وقد وقع اختيار الرئيس، بالذات هدفاً له، ليضمن لنفسه التفوّق في البطولة على ما قام به الممثّل في عمله السينمائيّ، وبهذا يحظى بالممثّلة الجميلة «جودي فوستر».

بعد إخضاع جون هانكلي، لفحوصات دقيقة مكثّفة والتأكد من حالته المرضيّة العقليّة المتقدمة، واعتباره من أخطر المصابين عقلياً، زجّ به، حيث يجب أن يكون منذ أمد بعيد: في مستشفى القديسة أليزابت، بواشنطن، حيث لم يجد لنفسه، سلوى يمضي بها أوقاته، سوى مكاتبة أمثاله، من المختلين المجرمين، بمثابرة وإلحاح تلفت الأنظار. ومن هؤلاء «شارل مانسن» الذي قتل الممثلة الشهيرة «شارون تات» وستة أشخاص غيرها. كذلك وجّه العديد من الرسائل، إلى «لينيت فروم» الذي حاول اغتيال الرئيس «جيرالد فورد» سنة ١٩٧٥ . ولم يفوته مكاتبة، المجرم الشهير «تيودور بوندي» الذي نال قصب السبق في عدد الضحايا إذ حَفِلَ سجلّه بستة وثلاثين جريمة قتل (فقط لا غير) في فلوريدا.

أمّا من جهة «جيمس برادي» الناطق باسم البيت الأبيض والذي أصيب يوم محاولة قتل الرئيس ريغن، فقد بقي معاقاً، مدى الحياة بالرغم من العناية الفائقة التي بذلها أشهر الاخصائيين والجرّاحين الذين احتشدوا حوله، ولم يتمكن من استعادة قواه الجسديّة والعقليّة إذ كان قد أُصيب بجرح بليغ في رئته اليسرى ونزيف داخلي غزير في القفص الصدريّ، كما أنّ رئيسه ريغن يحمل أثر جرح كبير في صدره، ممّا يشكل ذكرى أليمة لا تُنسى لذلك الحادث الأليم، الذي يشهد ببراعة الجرّاحين الأميركيين وتدخّلهم الفعّال.

عندما تماثل ريغن سريعاً للشفاء، وأثناء نقاهته تلقّى عشرات الآلاف من البرقيّات، ومئآت ألوف الرسائل تستنكر الاعتداء وتتمنى له الشفاء العاجل، ممّا يدل على تعاظم شعبيّته وتعلّق الجماهير بشخصه إثر الحادث، والجدير بالذكر أنّ ذلك انعكس إيجابيّاً على الاقتصاد الأميركي بشكل مدهش،

مّما جعل الدولار يقفز قفزات كبيرة في أسواق البورصة العالميّة، وقد كافأ الأميركيون رئيسهم على طريقتهم، فزعموا، أنهّ يتمتع «بالبركة» والفال الحسن.

رغم نجاته وريغن، يحمل آثارها النفسيّة:

من المعروف جيّداً، والمتفق عليه بين الأطباء، وعلماء النفس أنهّ، ولو نجا الإنسان من حادث مريع، كمحاولة اغتيال أو سقوط طائرة، أو بعد احتجازه كرهينة، فمن المستحيل أن يخرج كما كان تماماً قبل تعرّضه لتجربة كهذه، كما لا يمكن أحدٌ أن يدخل إلى المطحنة دون أن يعلق بثيابه بعض الغبار، هكذا لا بدّ أن يحمل من ينجو من حادث مريع، آثاره طويلاً مهما حاول تناسيه، ومن المؤكّد أنّه يحتاج لمساعدة نفسية ولمدّة طويلة لكي يتمكّن من تخطي هواجسه واستعادة توازنه وإعطاء معنى لحياته والرصانة لتصرفاته، علماً، بأنّه لم ينل أحد الرؤساء ممن مرّوا في تجارب مماثلة، أيّة مساعدة، وأنّها غير معروفة في أوروبا. فتأكيداً لهذا المبدأ المعروف؛ صرّح رجل الأمن الذي ساهم بفعاليّة، في نجاة ريغن من محاولة الاغتيال التي تعرّض لها، «دنيز ماك كارثي» قائلاً بأنّ ريغن ومنذ تاريخ محاولة اغتياله أمام فندق «الهيلتون» سنة ١٩٨١ حتى نهاية أيّامه في البيت الأبيض، لم يجرؤ على القيام بخطوة واحدة في الشارع بحريّة كسابق عهده. وتحوّل فجأة، وخلال سَبع سنوات، إلى شخص يستحيل الوصول إليه، ولم يعد يشاهد إطلاقاً في واشنطن أو على مقربة من الاستراحات الرئاسيّة العديدة، إلّا على شاشات التلفزيون، أو خلال تنقلاته الرسميّة، محمياً بحائط من مئات الأجسام البشرية تحجبه حتى عن الأنظار، وقد توصّل به الحذر والحيطة إلى ارتداء معطف مدرّع في أكثر الأحيان، ممّا يعني أنّه ما زال متأثراً بالحادث الذي تعرّض له رغم أنّه يبذل جهداً للتظاهر بعدم المبالاة كما أنّه أصبح أكثر رؤساء العالم إصغاءً، إلى جهاز أمنه، ناهيك عن زوجته نانسي، التي لم يعد لها من مطلب، سوى زيادة جهاز حمايته.